منهج المتكلمين: دراسة وتقويم

عرفان عبد الحميد فتاح*

اعتمد المتكلمون في محاولاتهم:

أ- تثبيت صحة العقائد الإيمانية الثابتة بالوحي المعصوم عن الخطأ.

ب- والدفاع عن العقيدة الإسلامية ضد الشبهات التي أثارها أتباع الأديان والفلسفات السابقة لظهور الإسلام، والمتعارضة مع منطلقاته وتعاليمه في مسائل جوهرية، عقدية وسلوكية،[1] اعتمدوا منهجاً عقلياً أساسه الاحتكام إلى العقل والمنطق، مع دراسة تاريخية نقدية ومقارنة لمرتكزات الأديان والفلسفات المخالفة للإسلام. ومن هنا فإنهم بدؤوا ومهدوا لمباحثهم في الدين والعقيدة وتاريخ المذاهب والفِرق في مدوناتهم بالأمور الآتية:

أولاً: دراسة منهجية مفصلة للمعرفة الإنسانية: مصادرها، وطبيعتها، ومستوياتها، ففرقوا بين الشك والظن والاعتقاد واليقين.[2] فمنهم من ذهب إلى أن أول الواجبات التي يكلّف العبد بها معرفة الله تعالى، ومن ثم معرفة الواجبات الشرعية؛ وقيل بل هو النظر في معرفته تعالى، لأن النظر واجب اتفاقاً؛[3]

---

* دكتوراه الفلسفة الإسلامية من جامعة كمبردج، أستاذ بقسم أصول الدين والفلسفة ومقارنة الأديان، الجامعة الإسلامية العالمية – ماليزيا.

[1] عن التعريفات المختلفة لعلم الكلام، التي تعكس منهجه، ومباحثه، وتطوره التاريخي، انظر:

- الغزالي (توفي: 505هـ/1112م): المنقذ من الضلال(القاهرة: مكتبة النشر العربي، 1934)، ص 79.
- عضد الدين الإيجي: كتاب المواقف (القاهرة: مطبعة السعادة، 1325هـ/1327م)، ج1، ص 34-38.
- ابن خلدون (توفي: 808هـ/1405م): المقدمة (بيروت: دار المعرفة، 1956)،/ ص 826.

[2] أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين (القاهرة: دار الحديث، 1992)، ج1، ص 72-73.

[3] حوت أغلب كتب العقائد فصلاً وتمهيداً عن النظر، وأسبابه، ودرجاته، انظر:

- الإمام أبو بكر الباقلاني (توفي: 403هـ/1012م): كتاب التمهيد، تحقيق الأب مكارثي، بيروت، 1957.

واحتجوا لذلك أولاً: بما جاء في القرآن الكريم من الآيات الدالة على وجوب التفكر والحاثة عليه، والداعية إلى إنعام النظر، ومواصلة التأمل والتعقل والتدبر والتبصر، ومعلوم أن الفكر إنما هو تحصيل المعارف ليس إلا. ومن هنا فإنا لا نكاد نرى نظرية كلامية عقلية، إلا وهي مستنبطة من كتاب الله العزيز. واحتجوا ثانياً: لمنهجهم بما ورد في القرآن الكريم من رد للتقليد والإلف والمتابعة من غير تعقل وتدبر، وما جاء فيه من إشارة إلى أن كفر المشركين وزيغ المنحرفين عن الحق إنما كان بسبب: الإلف والعادة والتقليد والإتباع من غير حجة ولا بيّنة، أو سند عقلي مشروع. قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدُونَ﴾ (البقرة:170)؛ وقد تردد هذا الإنكار للإلف والعادة والتقليد بوصفه نقيض العلم الصحيح، ولهذا فهو ليس طريقاً إلى المعرفة، حتى لقد نسب الإمام ابن حزم الظاهري إلى عموم الأشاعرة قولهم: "ليس مؤمناً من لم يستدل" على دينه بعقله. وأكد علماؤنا أن تعطيل العقل عن وظيفته، أعني في التفكير والتدبر وحسن الفهم والتبين وإدراك المعلوم على ما هو عليه، يهبط بالإنسان إلى مستوى الدواب. واستشهدوا لذلك بقول الله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ﴾ (الأنفال:22). بل لقد ذهب بعض المتكلمين، استناداً إلى ما ورد في القرآن الكريم من وجوب النظر ولزوم التقليد والإتباع، إلى القول بأن: "أول الواجبات المفروضة على المكلف هو الشَّك"، وهذا هو ما اختاره أبو هاشم الجبّائي،[5] أول مبشر بفلسفة الشك المنهجي من أجل الوصول إلى اليقين، هو أيضاً ما ذهب إليه وأقرَّه الإمام أبو حامد الغزالي حيث يقول: "من لم يشك لم ينظر، ومن لم ينظر لم يبصر، ومن لم يبصر كان

- الإمام الغزالي: المستصفى من علوم الأصول (القاهرة: المطبعة الأميرية، بولاق، مصر، 1322هـ)، وكتاب: الاقتصاد في الاعتقاد (القاهرة: مطبعة البابي الحلبي، مصر، 1385هـ/1966م).
- أبو الفتح الشهرستاني (توفي: 548هـ/1103م): نهاية الأقدام في علم الكلام، تحقيق المستشرق ألفريد غيوم، لندن، 1964.
- إمام الحرمين الجويني (توفي: 478هـ/1085م): الإرشاد إلى قواطع الأدلة في الاعتقاد، تحقيق المستشرق الفرنسي لوسياني، باريس، 1938.

[5] انظر: الدكتور عرفان عبد الحميد فتاح: الفلسفة في الإسلام: دراسة ونقد (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1404هـ/1984م)، ص 35-36؛ وأيضاً: محمد يوسف موسى: القرآن والفلسفة (القاهرة، 1958)، ص 56.

في العمى والضلال"،[6] وهو القائل في مناسبة أخرى: "فأية رتبة في عالم الله أخسّ من رتبة من يتجمّل بترك الحق المعتقد تقليداً، بالتسارع إلى قبول الباطل تصديقاً، دون أن يقبله خبراً وتحقيقاً".[7] وأوضح في فصل مطول ودقيق من كتابه إحياء علوم الدين (كتاب العلم) فضل العلم ودرجاته، ووجوب النظر والتدقيق في الآراء والمعتقدات، وأشار في المنقذ من الضلال على أن "رد المذهب (أي مذهب) قبل الإحاطة به، والإطلاع على كنهه، رمي في عماية".[8] ورفض التقليد رفضاً باتاً قاطعاً بوصفه "قولاً بلا حجة فهو ليس طريقاً على العلم، لا في الأصول، ولا في الفروع".[9]

لكي يثبت المتكلمون قولهم بوجوب النظر وأنه واجب وحتم لازم، وردهم التقليد على أساس أنه ليس علماً، فقد التمسوا العذر لمن نظر وبحث في أصول دينه وعقيدته ثم لم يؤده اجتهاده إلى اليقين والصواب، وهو الرأي الذي اختاره في العصر الحديث الشيخ محمد عبده، وشدد عليه فقال: "من المعلوم أن من سلك طريق الاجتهاد، ولم يعول على التقليد، ولم تجب عصمته، فهو معرض للخطأ، ولكن خطؤه عند الله واقع موقع القبول، حيث كانت غايته من سيره، ومقصده من تمحيص نظره، أن يصل إلى الحق، ويدرك مستقر اليقين".[10] وقال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾ (البقرة:171)، إن الآية صريحة في "أنّ التقليد بغير عقل وهداية هو شأن الكافرين وأن المرء لا يكون مؤمناً إلا إذا عقل دينه، وعرفه بنفسه، حتى اقتنع به. فمن ربي على التسليم بغير عقل، والعمل ولو صالحاً بغير فقه، فهو غير مؤمن؛ لأنه ليس القصد من الإيمان أن يذلل الإنسان للخير كما يذلل الحيوان، بل القصد منه أن

[6] الغزالي: ميزان العمل، تحقيق الدكتور سليمان دنيا (مصر: دار المعارف)، 1946م، ص 47؛ وأيضاً المنقذ من الضلال، تحقيق عبد الحليم محمود، (القاهرة: الطبعة الخامسة، 1385هـ)، ص 85، ومقاصد الفلاسفة، تحقيق سليمان دنيا (القاهرة: سلسلة ذخائر العرب، 1961م) ص11.

[7] الغزالي: تهافت الفلاسفة، تحقيق الدكتور سليمان دنيا (القاهرة: سلسلة ذخائر العرب، 1961م)، ص 74.

[8] الغزالي: المنقذ من الضلال، تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود، الطبعة الخامسة، 1385هـ.

[9] المستصفى من علم الأصول، ص 5، وأكد هذا الرأي، فقال في كتابه معراج السالكين: "فمن عوّل على التقليد هلك هلاكاً مطلقاً"، نقلاً عن سليمان دنيا، الحقيقة في نظر الغزالي (القاهرة: دار المعارف، الطبعة الرابعة، 1994)، ص54.

[10] الدكتور سليمان دنيا: محمد عبده بين الفلاسفة والمتكلمين، القاهرة، 1966، المقدمة.

يرتقي عقله وتتزكى نفسه بالعلم بالله، والعرفان بدينه، فيعمل الخير لأنه يفقه أنه الخير النافع المرضي لله ويترك الشر لأنه يفهم سوء عاقبته، ودرجة مضرته في دينه ودنياه. ويكون فوق هذا على بصيرة وعقل في اعتقاده فلا يأخذه بالتسليم".[11] وهذا ما ذهب إليه أيضاً المرحوم الشهيد سيد قطب في تفسيره للآية ذاتها.[12]

وبناء على هاتين القاعدتين وانطلاقاً منهما، أعني: وجوب النظر والتعقل وحسن الإدراك، ورد التقليد والمتابعة والمحاكاة، فقد أنكر المتكلمون عامة أيضاً أن يكون "الذوق والإلهام" سبباً إلى المعرفة التي حصروا أسبابها في طرائق ثلاث: العقل والحس والخبر الصادق. يقول الإمام الماتريدي السمرقندي الحنفي، مقرراً إجماع علماء الكلام وأصول الفقه على أن: "السبل التي يتوصل بها إلى العلم بحقائق الأشياء: العيان (شهادة الحس) والأخبار (قول النبي الصادق) والنظر". فالإلهام ليس سبباً إلى العلم والمعرفة لأنه "دعوة إليها من غير فكر ونظر، ومن غير استدلال بآية، ولا نظر في حجة".[13] ويؤكد الإمام أبو بكر القفال الشافعي (توفي:365هـ/976م) هذا الرأي المجمع عليه ويعلل رفض الفقهاء والأصوليين للإلهام بقوله: "لو ثبتت العلوم بالإلهام، لم يكن للنظر معنى".[14]

ثانياً: قام المتكلمون -وجلهم مؤرخو أديان تفروا على ثقافة موسوعية راسخة- بدراسة منهجية، وقراءة نقدية، ومتابعة تاريخية دقيقة لأسس الأديان السماوية وغير السماوية وأركانها وتعاليمها، فدرسوا عن كثب: أصول عقائدها، وحددوا مواضع الخلاف الأساسية بين العقيدة الإسلامية وسائر

---

[11] الشيخ محمد عبده: تفسير المنار، تفسير الآية 71 من سورة البقرة، ج 2، ص 94، وأيضاً: رسالة التوحيد (مصر: مطبعة محمد علي صبيح)، ص 7.

[12] سيد قطب: في ظلال القرآن (القاهرة/ بيروت: دار الشروق، الطبعة الحادية عشرة، 1405هـ/1985م)، ج1، ص 155.

[13] أبو منصور محمد بن محمد بن محمود السمرقندي الحنفي (توفي: 333هـ/945م)، وإليه تنسب المدرسة الماتريدية في الأصول والعقيدة، التي ذاعت وانتشرت ببلاد ما وراء النهر؛ راجع له كتاب التوحيد، تحقيق الدكتور فتح الله عبد النبي خليف (دار الجامعات المصرية، 1970).

[14] الإمام الشوكاني: إرشاد الفحول، تحقيق شعبان محمد إسماعيل (مصر: دار الكتبي، 1992م)، ج2، ص 290، وانظر أيضاً: كتاب التعريفات للشريف الجرجاني مادة: الإلهام، والكاشاني: اصطلاحات الصوفية مادة: الإلهام.

العقائد والآراء الفلسفية التي وجدها المسلمون في البلاد المفتوحة، ودخلوا في مواجهات فكرة ضدها، وذلك انتصاراً لما أثاره القرآن الكريم من مواضع الشذوذ والانحراف عن الحق في تلك الأديان والفلسفات. وأسسوا دراساتهم وأقاموها على منطلق قرآني سديد، ثنائي التوجه والمقاصد، على النحو التالي:

أ- منطلق الإقرار والتصديق بالأديان السماوية، فالتوراة كتاب هدى ونور ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدىً وَنُورٌ ﴾ (المائدة: 44)، والإنجيل كتاب بشرة وهدى ونور ﴿وَآتَيْنَاهُ الْأَنْجِيلَ فِيهِ هُدىً وَنُورٌ﴾ (المائدة: 46). ولهذا فإن إيمان المسلم لا يكمل إلا بالاعتقاد بنبوة موسى وعيسى -عليها السلام- بل وبكل الأنبياء السابقين على بعثة خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم، وذلك تصديقاً لقول الله تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (البقرة:136).

ب- ومنطلق الهيمنة والقيوميّة والتصحيح وصيانة الحق بالتنبيه على مواضع الشذوذ والانحراف فيها من جهة، وحراسة جوهر الأديان وحقيقتها من جهة أخرى، قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ﴾ (المائدة: 48)[15]

وارتكازاً على هذين المنطلقين معاً، وصدوراً عنهما، قام المتكلمون بدراسة اليهودية والنصرانية في أصولهما وتاريخهما.

ففي دراستهم لليهودية أبانوا عن عقائدها الأساسية، وفصّلوا القول في كتابها المقدس،[16] وقلبوا النظر في صحة ما ورد فيها، وميزوا بين الفرق

---

[15] محمد الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير (تونس: الدار التونسية، دار الجماهير، 1984)، ج6، ص 220.

[16] اختلفت وتباينت آراء علمائنا في صحة التوراة المتداولة والمعتبرة عند اليهود، فقال قوم "كلها أو أكثرها بدلة مغيرة، ليست هي التوراة التي أنـ ـزلها الله على موسى عليه السلام. وهذا رأي الإمام ابن حزمن (توفي: 456هـ/1064م) (انظر كتاب الفصَل في الملل والنحل 224/1)، وهو رأي بعض مسلمة اليهود أمثال: صموئيل (السموؤل) بن يهوذا بن عباس المغربي المتوفي عام 570هـ/1175م، الذي ذكر في كتابه الموسوم بـ . بذل المجهود في إفحام اليهود ما نصه: " فهذه التوراة التي في أيديهم على الحقيقة كتاب عزرا الكاتب الذي حفظ من محفوظاته، ومن النصوص التي يحفظها الكهنة ما لفّق منه هذه التوراة نقلاً عن: أسعد رزوق: التلمود والصهيونية، ص 43.

اليهودية، وما اختصت به كل فرقة من آراء وعقائد، مثل: الربائيين والقرائيين والفريسيين والصدوقيين والسامريين،[17] وناقشوا علماء اليهود في مسائل الخلاف الأساسية بين اليهودية والإسلام، ومنها:

أ- إنكار اليهود للنسخ في الشرائع: حيث زعموا أن النسخ في الأحكام بداءُ في الأوامر، وأن الإقرار به يسوق لزاماً إلى القول بتغير الإرادة الإلهية، ومن ثم الذات الإلهية، وهو محال عقلاً وديناً؛ فقالت اليهود: إن الشريعة لا تكون إلا واحدة وهي بدأت بموسى -عليه السلام- واختتمت به، فلا شريعة قبله أو بعده. وهكذا فإن إنكار النسخ في الأحكام أصلٌ ثابت وركن من أركان العقيدة اليهودية التي لخصها الربائي والفيلسوف اليهودي الشهير موسى بن ميمون (توفي: 600هـ/ 1204م) في كتابه الموسوعي دلالة الحائرين في ثلاثة عشر ركناً، نص الركن التاسع منها على إقرار اليهودي بالآتي: "أنا أؤمن إيماناً تاماً أن هذه الشرعة لا تتغير، وإلا لا تكون شريعة من لدن الخالق تبارك اسمه".[18] وهو ما عبر عنه مؤرخ الأديان المعروف الإمام أبو الفتح الشهرستاني (توفي: 548هـ/ 1153م) بقوله على لسانهم: "إن اليهود زعموا أن الشريعة لا تكون إلا واحدة، وهي ابتدأت بموسى عليه السلام وتمت به. فلم يكن قبله

وذهبت طائفة أخرى من أئمة الحديث إلى أن التبديل وقع في التأويل لا في التنـزيل، وهذا الرأي ضعيف لا يؤبه به. وذهبت طائفة ثالثة، منهم ابن تيمية الحرّاني إلى أنه قد زيد فيها، وغيرت ألفاظ يسيرة منها، ولكن أكثرها باق على ما أنـزل عليه، والتبديل في يسير منها جداً. ويقترب جمال الدين القاسمي في تفسيره محاسن التأويل (2085/6) من هذا الرأي فيقول: "شرائع هذه الكتب وأوامرها ونواهيها هي أقل أقسامها تحريفاً. وأكثر التحريف في القصص والأخبار والعقائد وما ماثلها. والذي يصح عندنا هو ما ذكره صاحب تفسير المنار (156/3) إذ يقرر: "التوراة في عرف القرآن هي ما أنـزله الله تعالى أن قومه لم يحفظوه كله فقال تعالى في سورة المائدة (الآية 13) ﴿وَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ (المائدة: 13)، كما أخبر في آيات أخرى أنهم يحرفون الكلم عن مواضعه وذلك فيما حفظوه واعتقدوه".

[17] انظر عن هذه الفرق وآرائها، كتب المقالات، مثل:

- البغدادي: الفرق بين الفرق (طبعة القاهرة، 1910)؛ الشهرستاني: الملل والنحل، على هامش الفصل في الملل لابن حزم (القاهرة-1928-1929) -الفخر الرازي (توفي: 606هـ/1209مم): اعتقادات فرق المسلمين والمشركين؛ ابن حزم: الفصل في الملل والنحل.

[18] موسى بن ميمون: دلالة الحائرين، أركان اليهودية، الترجمة الإنجليزية عن الأصل العربي للكتاب لـ: فريد لندر، لندن، 1904، وانظر للمقارنة الدكتور فؤاد حسنين علي: اليهودية واليهودية المسيحية (القاهرة: منشورات معهد البحوث والدراسات العربية، 1968)، ص 114.

شريعة إلا حدود عقلية وأحكام مصلحية. فلم يجوزوا النسخ أصلاً. وقالوا: لا تكون بعده شريعة لأن النسخ في الأوامر بداء، ولا يجوز البداء على الله".[19]

وقد فصل المتكلمون والأصوليون عامة القولَ في النسخ في الأحكام، وعدوه مصلحة، وأنكروا البداء وكفروا القائلين به.[20]

ب– دفع شبهة التشبيه والمماثلة: ذهب عامة المتكلمين إلى أن التشبيه والتجسيم كانا في الأصل من اليهود. فتحت ضغوط الوثنية العتيدة المحيطة بها وشذوذاً عن جوهر الرسالة الإلهية الأصيلة التي جاء بها موسى، تحولت العقيدة اليهودية –على أيدي الكهنة والأحبار– إلى ديانة برّانية، تهتم بالمشخص والمادي المحسوس[21]؛ وارتكس اليهود –المرة بعد المرة– في بدايات تاريخهم في الوثنية، عبادة للأوثان والأصنام ولردةً عن دين التوحيد الذي بشّر به موسى عليه السلام.[22]

---

[19] الشهرستاني: الملل والنحل، 124/1، على هامش "الفصل" لابن حزم، القاهرة، 1928-1929.

[20] انظر: الإمام القرطبي (توفي: 671هـ/1272مم): الجامع لأحكام القرآن، في تفسير قوله تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (البقرة:106)، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ (النحل:101)، وأيضا: الفخر الرازي: مفاتيح الغيب (القاهرة: 1890-1891، ثمانية أجزاء)، في تفسير الآيتين السابقتين، والقاضي عبد الجبار المعتزلي (توفي: 415هـ/1024م): شرح الأصول الخمسة، تحقيق الدكتور عبد الكريم عثمان (القاهرة، 1384هـ/1965م)، ففيه دراسة منهجية عقلية متميزة عن النسخ في الأحكام وضرورته.

وأيضاً: الواحدي (توفي: 468هـ/1076م): أسباب النزول، ص 116. طبعة الحلبي، 1959. وذكر المفسرون أن سبب نزول هاتين الآيتين أن اليهود زعموا أن محمداً، ﷺ، سخر بأصحابه يأمر بأمر اليوم ثم ينهاهم عنه، ويأمرهم بخلافه. ويقول اليوم قولاً ويرجع عنه غداً. ما هذا إلا كلام محمد يقوله من تلقاء نفسه، وهو كلام يناقض بعضه بعضاً، فأنزل الله ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ﴾ (النحل: 101)، وأنزل أيضاً: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا﴾ (البقرة: 106). وفرية التناقض هذه التي أثارها يهود المدينة قد رددها الجمع الأكبر من المستشرقين الذين زعموا أن في القرآن تناقضاً وتعارضاً، وهي الفرية التي أوردها جولدزيهر ورددها من بعده آخرون أمثال: تور أندريه وولهوزن ودي بور ونيكلسون ومكدونالد وسنوك وهورختيه وأخيراً جوزيف شاخت. انظر كتابنا: دراسات في الفكر العربي الإسلامي (عمان: دار عمار –1412/1991)، الفصل الخاص بـ. (التراث العربي – الإسلامي والاستشراق الأوروبي)، ص 133-155.

[21] الشهرستاني، المصدر نفسه 141/1؛ الفخر الرازي: اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، تحقيق الدكتور علي سامي النشار (طبعة القاهرة)، ص 64. وقد أيد ما ذهب إليه الإسلاميون Simon Rawidovics في مقال له بعنوان: "جهود سعدايا الفيومي لتنزيه الألوهية عن التشبيه"، مجلة العالم الإسلامي، العدد 40، ص 207-216. فقال ما نصه: "رغم الجهود التي بذلها أنصار التأويل ومناهضو التفسيرات الحرفية لنصوص الترواة، فإن التشبيه استمر بين اليهود بوصفه تياراً فكرياً قوياً حتى كادت إسرائيل تقترن في الأذهان بالتشبيه، وصار التشبيه تهمة قومية ألصقت باليهود من قبل كثيرين".

[22] ارتكس اليهود بعد وفاة موسى عليه السلام في الوثنية وعبادة الأصنام لمرات عديدة، فبعد دخولهن عنوة الأراضي المقدسة بفلسطين، وظهرو حالة هشّة من الوحدة القومية والدينية عليهم، سرعان ما سرت إليهم الكثير من معتقدات الكنعانيين الوثنية، كتقديم الأبناء قرابين للآلهة وامتهان الفحش المقدس، وممارسة عادة البكاء على الأله تموز، وعبادة عشتروت والإله بعل (انظر: سفر أرميا، 17/7). وفي العصر السلوقي الذي تلا موت الإسكندر المقدوني ترك اليهود الالتزام بأحكام التوراة،

وقد انتهى إجماع خلف الأمة -أخذاً لمنهج المعتزلة العقلي ومتابعة له وتطويراً في التأويل، ودفعاً للتشبيه وإزهاقاً لفرق المشبهة والمجسمة- إلى وجوب تأويل الصفات الخبرية التي ظواهرها تفيد المماثلة والتشبيه، وذلك دفعاً لشبهة التشبيه، وإسقاطاً لدعاوى طوائف المشبهة والمجسمة من غلاة الشيعة وحشّوية أهل الحديث، فقال الإمام فخر الدين الرازي (توفي: 606هـ/1209م): "جميع فِرق الإسلام مقرّون بأنه لا بد من التأويل في بعض ظواهر القرآن والأخبار".[23] ونظراً لما ينطوي عليه التأويل من مخاطر الفولّ فيه والخروج به عن مقاصده، كما كان الحال مع الجماعات الباطنية التي جعلت من التأويل وسيلة هدم وإفساد لحقائق الدين، فقد جهد المتكلمون لوضع قانون ضابط للتأويل يبعد عنه مخاطر التأويلات الباطنية الهدامة.[24]

ج- تنـزيه الأنبياء عن الذنوب وإثبات العصمة لهم: لقد نسبت التوراة إلى العديد من أنبياء بني إسرائيل اقتراف كبائر الذنوب، بل وحتى الردّة عن دين موسى عليه السلام، والارتكاس في الوثنية. فقد جاء في التوراة إنّ لوطاً قد زنى بابنتيه فحملتا منه. فتقول رواية التوراة أن لوطاً كانت له ابنتان "فقالت الكبرى للصغرى: شاخ أبونا وما في الأرض رجل يتزوجنا على عادة أهل الأرض كلهم، تعالي نسقي أبانا خمراً ونضاجعه، ونقيم من أبينا نسلاً"... وفي

وتركوا السبت ومارسوا مجدداً العهر المقدس وأكل الخنـزير غصباً بأمر من أنطيخوس الرابع أبيفانوس الذي حكم من 175 حتى 164 ق. م. انظر للتفاصيل: أيسدور أبشتاين: اليهودية: عرض تاريخي Isodor Ipstein: Judaim A Historical Presentation، (لندن: سلسلة: Penguin، 1959)، الفصل الأول.

[23] الفخر الرازي: أساس التقديس في علم الكلام (طبعة القاهرة: 1945)، ص 180. وأيضاً: الغزالي: إلجام العوامل عن علم الكلام (طبعة القاهرة: 1309هـ)، ص 16.

[24] تحول التأويل العقلي الذي ابتكره المعتزلة وسيلة لتنـزيه الباري تعالى عن المماثلة والمحايثة والتجسيم، على أيدي الجماعات الباطنية إلى أداة هدامة، خبيثة وخطيرة؛ جعلت من عقائد الإسلام ركاماً هامداً من السخف والشعوذة وادعاء المخاريق. للتفاصيل انظر:

- الغزالي: فضائح الباطنية، تحقيق الدكتور عبد الرحمن بدوي (القاهرة: الدار القومية، 1964)، ص 34.
- البغدادي: الفرق بين الفرق (القاهرة: مطبعة المعارف، 1910)، ص 170. وقد لخص جولدزيهر مقاصد الباطنية من تأولاتهم بقول: "وقد انتهى الأمر بهم إلى طمس معالم الإسلام وانحلال عقائده انحلالاً تاماً"، انظر العقيدة والشريعة في الإسلام، الترجمة العربية، الطبعة الثانية (القاهرة-1959)، ص238.
- وقد حاول كل من الإمام الغزالي والفخر الرازي وقاضي قرطبة أبو الوليد بن رشد وضع قانون كلي ضابط للتأويل، يبعد عنه مخاطر التأويلات الباطنية الهدامة، انظر: عرفان عبد الحميد فتاح: دراسات في الفرق والعقائد الإسلامية (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1404هـ/1984م، الطبعة الثالثة)، الفصل الخاص بالتأويل، ص 216، وما بعدها.

الغد قالت الكبرى للصغرى: "ضاجعت البارحة أبي، فلنسقه خمراً الليلة أيضاً، وضاجعيه أنت لنقيم من أبينا نسلاً" (سفر التكوين، 19: 20-37). وجاء في التوراة أن النبي سليمان، عليه السلام، قد ارتد واعتنق الوثنية. فتقول التوراة: "وكان له سبع مائة زوجة من الأميرات وثلاث مائة جارية، فأزاغت نساؤه قلبه، وفي زمن شيخوخته مالت زوجاته بقلبه إلى آلهة غريبة، فلم يكن قلبه مخلصاً للرب إلهه؛ كما كان قلب أبيه داود.. وتبع سليمان عشتروت آلهة الصيدونيين وفعل الشرَّ أمام عيني الرب. وبنى في الجبل الذي قبالة أورشليم معبداً لكوش إله مؤاب" (سفر الملوك الأول: 110-17)، وأن النبي داود عليه السلام زنى بامرأة فحملت منه سفاحاً (سفر صموئيل 1-21).

وقد شغل المتكلمون -وخاصة شيوخ المعتزلة، ومن منطلق عقلي محض- أنفسَهم بإثبات العصمة للأنبياء، باعتبار أن نفي العصمة عنهم قَدْح في النبوة، وعندها تصبح الرسالة عبثاً لا فائدة منها، "لأنا أمرنا باتباعهم في أفعالهم وآثارهم وسيرهم أمراً مطلقاً من غير التزام قرينة، فلو جوّزنا عليهم الذنوب لم يكن الاقتداء بهم".[25] وقد فصّل المتكلمون القول في صور العصمة ونطاق شمولها، وزمانها، وهل هي تبدأ بالنبوة أم تسبقها، وهل هي عصمة عن الكبائر فحسب أم عنها وعن الصغائر المشينة أيضاً، وه هي عصمة في الاعتقاد أم تشمل الأفعال والتبليغ والفتوى أيضاً.[26]

كذلك عرض المتكلمون لمرتكزات العقيدة المسيحية كالقول: "بالتثليث"، ودعوى "ألوهية عيسى وأمه العذراء البتول عليهما السلام"، و"الصلب" و"الفداء"، لكونها جميعاً انحرافات عن عقيدة عيسى عليه السلام، ومما أنكره القرآن الكريم وردّه، ونـ ـزّه السيد المسيح عنه، فقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ﴾ (المائدة: 73)، وقال الله تعالى: ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ﴾ (المائدة: 116)، وقال

[25] تفسير القرطبي، 293/1.

[26] في تفاصيل آراء علماء الكلام عن العصمة، وحدودها ونطاقها، راجع:

- القاضي عبد الجبار المعتزلي: المغني في أبواب العدل والتوحيد، ج13، ص15.
- الفخر الرازي: محصل آراء المتقدمين والمتأخرين، ص 157، (طبعة القاهرة، 1323هـ).

تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾ (النساء: 157). كذلك كشف المتكلمون ما خالط المسيحية من عادات وعوائد ذات أصول وثنية رومانية مثل: الرهبنة والعزوبية والإخصاء، وأكل الميتة ولحم الخنـزير، والصلاة على نجاسة من غير طهر، وترك سنّة الاختتان الإبراهيمية؛ ولخصوا ذلك كله في عبارة موجزة وجامعة فقالوا: "تروّمت المسيحية ولم تتنصر الروم"؛ وعرضوا أيضاً للفرق المسيحية الأولى، وللمؤتمرات الدينية التي عقدتها الكنيسة برعاية من السلطة الإمبراطورية لتقرير العقائد وقواعد الإيمان، وما تمخضت عنه تلك المؤتمرات الدينية السياسية من اختلافات دينية، وانشقاقات مذهبية، وظهور الطوائف المسيحية المتخالفة المتصارعة مثل: الآريوسية الموحدة، والنسطورية والملكانية، وما اختصت بها كل فرقة من تأويل وتفسير لعقيدة التثليث.[27]

وناقش المتكلمون أيضاً أبتاع الديانات المجوسية الإثْنينية، مثل الزرادشتية والمانوية والمزدكية، وأبطلوا دعواهم في القول: "بوجود إلهين اثنين خالقين"، إله يستقل بخلق الخير، وهو إله النور (أهورامزدا)، وإله يستقل بخلق الشر، وهو إليه الظلمة (أهْرِمَنْ)، وانتصروا لحجة القرآن الكريم في إبطال هذه الدعوى، لقوله

---

[27] لتفاصيل الردود الإسلامية على ما عده الإسلاميون انحرافاً عن عقيدة عيسى عليه السلام، وأنها إنما فرضت من قبل المجامع الدينية غصباً وجيزاً تحقيقاً لأغراض سياسية امبراطورية، راجع:

- القاضي عبد الجبار المعتزلي: تثبيت دلائل النبوة.
- الإمام أبو بكر الباقلاني: كتاب التمهيد.
- الجاحظ (توفي: 255هـ/879م): البيان والتبيين.
- الشهرستاني: الملل والنحل.
- ابن حزم الأندلسي: الفصل في الملل والنحل.

وقد مجمع هذه الردود، وقام بدرساتها دراسة نقدية وتحليلية ممتازة الدكتور عبد المجيد الشرفي في رسالته الموسومة بـ . الردود الإسلامية على النصارى. كذلك قام بدراسة ما تمخضت عنها المؤتمرات الدينة الأولى، خاصة مؤتمر نيقية Necene عام 325م برعاية من الامبرطور قسطنطين الأكبر الذي أعلن المسيحية ديناً رسمياً للإمبراطورية الرومانية، والذي أصدر ما صار يعرف في تاريخ المسيحية (بقانون الإيمان): وحلل مضامينها تحليلاً نقدياً وفلسفياً متميزاً طبيب تيزيني في موسوعته الموسومة بـ .: من يهوه إلى الله (بيروت: دار دمشق، 1985-1986)، ج13، ص 398 وما بعدها.

وقد جاء على التفاصيل التاريخية لهذا المؤتمر وما تلاه من مؤتمرات المؤرخون الإسلاميون مثل:

- المسعودي: مروج الذهب، ج1، (ذكر ملوك الروم المنتصرة)؛ تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، (صيدا: المكتبة العصرية)، ص 317 وما بعدها.
- اليعقوبي (توفي بعد: 292هـ/905م): تاريخ اليعقوبي (بيروت: دار صادر، 1412هـ/1992م)، المجلد الأول ص 153 وما بعده ا.

تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (الأنبياء:22)، وقوله عز وجل: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (المؤمنون:91). وقد صاغ المتكلمون من هذا الإعجاز القرآني صورة دليل عقلي تواضعوا على تسميته بدليل التمانع[28]، وقد قال الإمام الغزالي بعد تقرير صورة الدليل العقلية "إن الآية لا أبين منها في برهان التوحيد، وأنه لا مزيد على بيان القرآن".[29]

كذلك تصدى المتكلمون للنزعات العدمية التي ربطوها بالمزدكية[30] خاصة، وهي النزعة الخبيثة التي سَرَتْ إلى جماعات من الغلاة المنتسبين إلى مذاهب الشيعة وزنادقة الزّهاد والمتصوفة،[31] ممن بشروا ومارسوا استحلال

---

[28] دليل التمانع وملخصه: "أنا لو قدرنا إلهين اثنين، وفرضنا غرضين ضدين، وقدرنا إرادة أحدهما لأحد الضدين، وإرادة الثاني للثاني، فلا يخلو من أمور ثلاثة: 1- إما أن تتفق إرادتهما، 2- أو لا تتفق إرادتهما، 3- أو تنفذ إرادة أحدهما دون الآخر. واستحال أن تنفذ إرادتهما، لاستحالة اجتماع الضدين، واستحال أيضاً ألا تنفذ إرادتهما، لتمانع الضدين، وخلو المحل عن كلا الضدين. فإذا بطل القسمان تعين الثالث: وهو أن تنفذ إرادة أحدهما دون الآخر. فالذي لا تنفذ إرادته، هو المغلوب المقهور المستكره، والذي نفذت إرادته، فهو: القادر على تحصيل ما يشاء". انظر:

- إمام الحرمين الجويني: لمع الأدلة في قواعد عقائد أهل السنة والجماعة، تحقيق الدكتورة فوقية حسين (القاهرة: 1965)، ص86.
- الشهرستاني: الملل والنحل، بهامش الفِصَلْ، 72/2.
- الفخر الرازي: التفسير، 151/2.
- جمال الدين القاسمي: محاسن التأويل، ص 4261.

[29] المراجع المذكورة في الهامش السابق.

[30] ربط مؤرخو المذاهب والأديان والفرق النزعات العدمية بالمزدكية، ذلك أن في المجوس طبقة من الكهنة مؤلفة بهيئة أخوة أو جمعية دينبة كانت تبيح الزواج بالأقارب الأقربين (طه باقر: تاريخ حضارات الشرق القديم، 424/2؛ الفخر الرازي المصدر السابق، ص 89). كذلك ثبت عن أكثر من واحد من أكاسرة الفرس زواجه من ابنته ثم قتلها. كذلك فعل بهرام جور الذي تزوج بأخته: انظر: كرستنسن: الإمبراطورية الساسانية (بالفرنسية) ص 73؛ وللوقوف على تفاصيل هذه النزعة من الشيعة والصوفية الخبيثة التي سرت إلى طوائف الغلاة انظر كتابنا: نشأة الفلسفة الصوفية وتطورها، (بيروت: دار الجيل، 1992/1412)، ص 84 وما بعدها.

[31] ميز شيوخ الصوفية الملتزمون بأدب الدين والعقل بين: الصوفي والمتصوف والمستصوف، وقالوا في وصف الأخير، "هو من تشبه بهم من أجل المال والجاه وحظ الدنيا... وهو عند الصوفية كالذباب، وعند غيرهم كالذئاب". انظر: الهوجويري: كشف المحجوب، الترجمة العربية مع دراسة وتحقيق للدكتورة إسعاد قنديل (بيروت: دار النهضة الحديثة)، ص 431؛ وراجع للاستزادة:

- القشيري: الرسالة القشيرية، (القاهرة: مكتبة محمد علي صبيح)، ص2-3.
- السهروردي أبو حفص عمر: عوارف المعارف (بيروت: دار الكتاب العربي، 1966)، ص79.
- وقد عد الفخر الرازي هذه الفرقة من المنتسبين باطلاً إلى الصوفية وسماهم "الإباحية" وقال عنهم: "هم قوم يحفظون طاعات لا أصل لها، ... ويخالفون الشريعة ويقولون "إن الحبيب رفع عنا التكليف، وهؤلاء هم شر الطوائف، وهم على الحقيقة على دين مزدك"، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، تحقيق علي سامي النشار، القاهرة (1968)، ص27.

المحرمات وإسقاط التكاليف وإقامة حفلات العهر الجماعي والفسق والفجور.[32]

وتصدى المتكلمون كذلك لمذاهب البراهمة[33] المنكرين للنبوات والوحي والرسالة، الذين زعموا أن في العقل كفاية وغُنية عن الوحي والنبوة: "لأن الذي يأتي به الرسول لم يخل من أحد أمرين، إما أن يكون معقولاً، وإما أن لا يكون معقولاً. فإن كان معقولاً كفانا العقل التام بإدراكه والوصول إليه، فلا حاجة لنا إلى الرسول؛ وإن لم يكن معقولاً، فلا يكون مقبولاً، إذ قبولنا ما ليس بمعقول خروج عن حدّ الإنسانية ودخول في حدّ البهيمية".[34]

وكانت هذه المسألة وراء مباحث المتكلمين المفصلة عن "الصلة بين العقل والنقل"، وفي القول بالحسن والقبح: أهما ذاتيان للأشياء، ويدركهما العقل قبل ورود السمع وأمر الشارع بها إن كانت حسنة، ونهيه عنها إن كانت قبيحة؟ وقد انتهت آراء الخَلَف عامة إلى وجوب: الجمع بين الوحي والعقل، ورفع التعارض بينهما إن كان قائماً، لأن الوحي، كما قال الإمام الغزالي: "عقل من خارج، والعقل وحي من داخل"، فهما متعاضدان، وأن المسلم الحق هو من جمع بين نور الشرع ونور العقل الذي كرّم الباري تعالى الإنسان به. وقرر الإمام الفخر الرازي القاعدة المشهورة في هذا الخصوص فنصَّ على: "أن القدح في العقل لتصحيح النقل، يفضي إلى القدح في العقل والنقل معاً، وأنه باطل، وأن الدلائل القطعية العقلية إذا قامت على ثبوت شيء، ثم وجدنا أدلة نقلية

---

[32] انظر كتابنا: نشأة الفلسفة الصوفية وتطورها (بيروت: دا ر الجيل، 1993/1413)، الفصل الخاص بـ: نـزعة إسقاط التكاليف الدينية واستحلال المحرمات، ص 84-92.

[33] يقول الشهرستاني (المصدر السابق 221/2، طبعة الحلبي، 1964): "من الناس من يظن أنهم سموا براهمة لانتسابهم إلى إبراهيم –عليه السلام– وذلك خطأ. هم المخصوصون بنفي النبوات أصلاً ورأساً، فكيف يقولون بإبراهيم عليه السلام؟ وهم إنما انتسبوا إلى رجل منهم يقال له برهام. وقد مهد لهم بنفي النبوات أصلاً، وقرر استحالة ذلك في العقول بوجوه".

[34] انظر عن دعاوى البراهمة في نفي النبوات:

- الباقلاني: كتاب التمهيد، ص 115.
- الشهرستاني: المصدر السابق، 251/2.
- ابن الجوزي (توفي: 597هـ/120م): تلبيس إبليس، ص 65، طبعة القاهرة، 1928.

يشعر ظاهرها بخلاف ذلك، لزم تأويل الدلائل النقلية بمقتضى الدلائل العقلية القاطعة؛ فهذا هو القانون الكلي المرجوع إليه".[35]

وهذا الذي نصَّ عليه الإمام الفخر الرازي قد قرره كثيرون قبله أمثال إمام الحرمين الجويني (توفيك 478هـ/1085م) والإمام أبي حامد الغزالي (توفي: 505هـ/1112م)؛ فقد قال الغزالي: "ومن ظن أن المنظرة في إبطال هذه الحقائق [العلمية الثابتة] من الدين، فقد جنى على الدين، وضعّف أمره. فإن هذه الأمور تقوم عليها براهين حسابية وهندسية، لا تبقى معها ريبة. فمن يطلع عليها ويتحقق أدلتها، إذا قيل له: هذا خلاف الشرع لم يسترب فيه، وإنما يسترب في الشرع. وضررُ الشرع ممن ينصُره لا بطريقة أكثر مِنْ ضرر مَنْ يطعن فيه بطريقة. وهو كما قيل: عدو عاقل خير من صديق جاهل."[36]

وهذا الرأي هو ما شدَّد عليه وأقره الإمام محمد عبده في العصر الحديث، كما سنرى.

وكان شيوخ المعتزلة من أوائل من تعرضوا لهذه المسألة -كما تقول المستشرقة الألمانية سوسنة فلزر- وذلك "بقوة عجيبة وثبات عظيم، وحاولوا حلها بطريقة مبتكرة"؛[37] ولهذا أيضاً سُمّي المعتزلة "بفلاسفة العقل في الإسلام" وبـ . "أحرار الفكر في الإسلام".[38]

---

[35] الفخر الرازي: أساس التقديس في علم الكلام، ص 182؛ وأيضاً: الغزالي: الاقتصاد في الاعتقاد (طبعة القاهرة 1327)، ص 70. حيث يقول: "كلا طرفي قصد الأمور ذميم، وأنى يستتب الرشاد لمن يقنع بتقليد الأثر والخبر وينكر مناهج البحث والنظر، وكيف يهتدي للصواب من اقتفى محض العقل واقتصر، وما استضاء بنور الشرع ولا استبصر. هيهات قد خاب على القطع والثبات وتعثر بأذيال الضلالات من لم يجمع بتأليف الشرع والعقل هذا الشتات. فالعقل مع الشرع نور على نور" وقد عبّر قاضي قرطبة وفقيهها عن هذه المؤاخاة بين الوحي والعقل واصطلح عليها بـ .: الإصابة في النبوة والإصابة في غير النبوة، وقال عنهما معاً: هدايتان من الخالق تعالى: "إن الحكمة هي صاحبة الشريعة والأخت الوضعية، وهما المصطحبتان بالطبع، والمتحابتان بالجوهر والغريزة" انظر: فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال، تحقيق الدكتور محمد عمارة، (القاهرة 1982)، ص67؛ وسنتناول هذا بالتفصيل والبيان في مقال قادم، إن شاء الله.

ومن هنا أيضاً تقرير الإمام الشيخ محمد عبده الذي يقول: "تآخى العقل والنقل لأول مرة في كتاب مقدس على لسان نبي مرسل بتصريح لا يقبل التأويل، وتقرر بين المسلمين كافة -إلا من لا ثقة بعقله ولا بدينه- أن من قضايا الدين ما لا يمكن الاعتقاد به إلا عن طريق العقل"، رسالة التوحيد، ص 7، مطبعة محمد علي صبيح، مص.

[36] الغزالي: مقاصد الفلاسفة، ص 80، المقدمة الثانية.

[37] فلرز (سوسنة): مقدمة كتاب طبقات المعتزلة.

[38] كتاب المستشرق الفرنسي:

Gallant, H. Essai Sur Mu' tazilites (Les Rationalistes de L'Islame) Paris, 1906.

- وكتاب الألماني هنري شتنـ ـز

Steiner, H. Mu'tazliten Oder die Freidenken in Islam.

على أن أوسع مواجهة لعلماء الكلام مع المخالفين، وأخطرها شأناً، وأشده صرامة وعنفاً، وأدومها نشاطاً وغنى وحيوية، كانت تلك التي وقعت بينهم وبين رواد الفلسفة اليونانية ومشايعيها من الإسلاميين الذين عرفوا "بالمشائيين العرب" لمتابعتهم آراء المعلم الأول أرسطو مذهبه. وهي الفلسفة التي شخص المتكلمون في منطلقاتها وآرائها: مرتكزات وأصول دائرة حضارية وثقافية مناوئة للإسلام ومتعارضة مع أصوله الإيمانية، وقواعده الخلقية، ونظرتها إلى الكون والحياة والإنسان.

ومما تجدر الإشارة إليه في هذا الخصوص أن مما وسع من دائرة هذه الخصومة الفكرية، وزاد من خصوبة هذا الحوار الثقافي والفلسفي وزخمه وديمومته على مدى قورن طويلة، اعتماد علم الكلام الإسلامي في -دائرة نظرياته الطبيعية- الأسس العلمية ذاتها التي أرسى الفكر اليوناني قواعده عليها، كما أشار إلى ذلك السير هاملتون جب.[39]

ومن المؤسف حقاً أن يشير الكتّاب الغربيون اليوم، خاصة أُلئك المشدودون إلى الدوائر السياسية ومصالحها، إلى الصراع التاريخي الملحمي بين الإسلام والغرب، غافلين عن قصد وسبق إصرار عن هذا الجانب الفكري الخصيب للعلاقات الثقافية (acculturstion) التي قامت -على مدى ألف عام أو يزيد- بين عالم الغرب وعالم الإسلام، سواء في صورة الأخذ والاستمداد الثقافي المتبادل، أم في صورة المناظرة والمواجهة، وهي العلاقات التي قد لا تجد لا مثيلاً بين دوائر الفكر والحضارة الأخرى.[40]

---

[39] السير هاملتون جيب: دراسات في حضارة الإسلام، ص203: الأصل الإنجليزي:
Studies on the Civilization of Islam (London: 1961).

[40] انظر مثلاً مقالة: صموئيل هانجتون: "صراع الحضارات" مجلة الشؤون الخارجية الأمريكية عدد/صيف 1993، الترجمة العربية للدكتور عرفان عبد الحميد فتاح، مجلة الندوة، دورية جمعية الشؤون الدولية (عمان: العدد الأول، شعبان 1415هـ/ كانون الثاني 1995م، ص 16 وما بعدها).

ولا بد من الإشارة هنا إلى أن هذا الاستعداد الفطري الموروث للثقافة الإسلامية للتحاور مع دوائر الفكر والحضارة المختلفة، نقيض لما وقع مثلاً بين المسيحية واليهودية، إذ لم يقم بين الديانتين حوار وتبادل ثقافي مثمر وبناء، واتسمت العلاقات الفكرية بين الديانتين بالانغلاق على الذات والامتناع عن الدخول في تبادل ثقافي يذكر بينهما، وحيثما ساد الصليب وانتشرت سيادته تلقى اليهود موجات من العنت والاضطهاد والتصفيات الجسدية، انظر إبرام زخار: دائرة المعارف الأمريكية، الطبعة الدولية، ص 10، ص6-64، مادة اليهودية: التاريخ والمجتمع.

لقد بدأت حملات الرد على الفلسفة اليونانية، خاصة في جانبها الإلهي، بمدرسة المعتزلة وشيوخها الأوائل أمثال أبي الهذيل العلاف وإبراهيم بن سيّار النظّام. فردود النّظام على الدهرية جديرة بالاعتبار كما أشار "ينسْ" لأنها: "هيأت للغزالي اعتراضاته التي وجهها للفلسفة"؛[41] وللإمام أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري (توفي: 324هـ/936م) رسالة عنوانها: كتاب الفصول[42] في الردّ على الدهرية الذين وصفهم الغزالي بقوله: "الصنف الأول (من أصناف الفلاسفة) الدهريون، وهم طائفة من الأقدمين جحدوا الصانع المدبر العالم القادر، وزعموا: أن العالم لم يزل كذلك بنفسه، وبلا صانع، ولم يزل الحيوان من النطفة، والنطفة من الحيوان، وكذلك يكن أبداً. وهؤلاء هم الزنادقة".[43]

وتابع هجوم شيوخ المعتزلة الأوائل شيوخ المدرسة الأشعرية من بعد، أمثال: الإمام أبي بكر الباقلاني وإمام الحرمين الجويني.[44] إلا أن الغزالي: "كان في مجال الهجوم على الفلاسفة عامة، والدهرية الزنادقة على وجه التخصيص، وتفنيد مزاعمهم: أقواهم حجة، وأغزرهم مادة، وأصلبهم قناة، وأطولهم باعاً، فطبع هذه الحملة بطابعه الغلاّب، وبهذا مكّن لها، وهيأ أذهان الناس لقبولها".[45]

لقد أدرك الإمام الغزالي بثاقب بصيرته، وذكائه الخارق، وجوه التضاد والتعارض بين الإسلام والفلسفة اليونانية التي -كما أشار الشهيد سيد قطب-: "قد نشأت في وسط وثني مشحون بالأساطير، واستمدت جذورها من هذه الأساطير، ولم تخل من عناصر الوثنية والأسطورية قط، فكان من السذاجة والعبث محاولة التوفيق بينها وبين التصور الإسلامي القائم على أساس التوحيد المطلق".[46]

[41] ينس (الدكتور): مذهب الذرة عند المسلمين، ترجمة: محمد عبد الهادي أبو ريدة (القاهرة، 1948)، ص16.

[42] ماجد فخري: ابن رشد فيلسوف قرطبة، ص 56، المطبعة الكاثوليكية، (بيروت، 1960).

[43] الغزالي: المنقذ من الضلال، ص 87.

[44] أبو بكر الباقلاني: كتاب التمهيد، باب الكلام في إثبات حدوث العالم، ص 22، وأيضاً: إمام الحرمين الجويني: الإرشاد، ص25. لابن حزم الأندلسي محاولة مسهبة أورد فيها خمسة أدلة على حدوث العالم، وأنه مخلوق، وإبطال مذهب القائلين بقدمه، الفصل في الملل والنحل، باب الكلام على من قال بأن العالم لم يزل، وأنه لا مدبر له.

[45] توفيق الطويل: قصة الصراع بين الدين والفلسفة، ص 114.

[46] سيد قطب: خصائص التصور الإسلامي ومقوماته (بيروت/القاهرة: دار الشروق، 1989)، ص21.

ويمكن تلخيص أهم مواضع الخلاف والتضاد الجوهرية بين التصور الإسلامي والفلسفة اليونانية وخاصة في جوانبها الإلهية، في مسائل أتى على ذكرها الإمام الغزالي، ومسائل أخرى مضافة نستنبطها نحن -باجتهادنا- من القراءة النقدية لتلك الفلسفة.

1- القول بقدم العالم وإنكار عملية الخلق من العدم: إن الفكر اليوناني -عامة- لا يقرّ ولا يعترف بالخلق من العدم Creation ex-nihilo، فلا شيء يكون عن لا شيء، وكل شيء هو عن شيء سابق عليه، حتى نصل إلى ما أسمه بالمادة الأولية، وهي أزلية لا أول لها، وأبدية لا نهاية لها، واصطلحوا عليها بالهيولا Primeval matter [Hylo] ، عنها ومنها تكون الموجودات.

وقد أكّد علماء الكلام وأثبتوا أن القول بقدم مادة العالم يسوق لزاماً إلى إنكار عملية الخلق، ومن ثم إلى إنكار الخالق البارئ المبدع تعالى. ولهذا عدّ المتكلمون القول بقدم العالم مدخلاً إلى إنكار الخالق تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (البقرة:117).

2- القول بأن الله تعالى يعلم الكليات (السنن والقوانين الطبيعية) ولا يعلم الجزئيات. وهذا متناقض مع قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (يونس:61)، وقوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (الأنعام:59).

3- قولهم بأن الأجساد لا تحشر، وأن الثواب والعقاب هما للأرواح المجردة. وأن المثوبات والعقوبات روحانية لا جسمانية، فاستبعدوا وأحالوا الخلق الثاني، وهذا متناقض مع قول الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ . قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ

خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ (يّـس: 78-79)، وقوله تعالى بصيغة الاستفهام الاستنكاري: ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (قّ:15).[47]

4- ولعل أهم هذه المشكلات وأخطرها، مما يمكن استنباطه من كتب الردود الإسلامية على الفلسفة اليونانية هي[48]: أن مرتكز الفكر اليوناني ومنطلقه، نـزعة إنسانية فردانية خالصة Extreme Subjectivism. فالفرد في مفهوم الفكر اليوناني، وكما أكّده السوفسطائيون: هو مقياس الأشياء كلها، كما جاء على لسان بروتاغوراس (توفي:410 ق.م)، مما لزم عنه عبر التاريخ: نـزعات ارتيابية وشكية وإلحادية؛ فصار الإنسان الفرد هو محور الوجود وقطبه، أو ما يصطلح عليه: قطبية الإنسان الفرد الصمد Anthropo-centricism التي تولدت عنها، وتفرعت عنها، وقامت عليها جملة مبادئ تلزم عنها منها: القول بنسبية الأحكام، فليس ثمة رأي أو حكم أصدق من نقيضه، أو أحق منه، فالأحكام جملة وتفصيلاً: ظنية احتمالية؛ والقول بأن القيم الخلقية هي الأخرى نسبية ومتغيرة Moral Relativism، وهي النـزعة التي بلغت مداها عند غورغياس السوفسطائي (توفي: 375ق.م)، ويتردد صداها عند الوضعيين عامة عبر التاريخ، ممن زعموا ويزعمون: أن ما يسمى بالقيم الخلقية المطلقة ليس إلا عادات وعوائد اجتماعية تتبدل وتتغير من شخص لآخر، ومن وقت لآخر، ومن مجتمع لآخر؛ وأخيراً القول بنفعية مادية خالصة Extreme Utilarianism ترى في المنفعة المادية الخالصة، العاجلة أو الآجلة، المقصد النهائي والغاية القصوى للسعي الإنساني.

والحق أن هذه النـزعات جاءت تمثل لبنات راسخات في بنية الفكر الغربي حتى يومنا هذا، وهو الفكر الذي يرتد في أصوله الكبرى وجذوره

---

[47] الغزالي: المنقذ من الضلال، ص 101 وما بعدها، أيضاً: تهافت الفلاسفة، الخاتمة، ص 293، وقد جعلنا دراسة هذه القضايا الثلاث محور القسم الثاني من كتابنا: الفلسفة الإسلامية؛ دراسة ونقد، الطبعة الثانية، مؤسسة الرسالة بيروت، لبنان، 1404-1984، ص 127-293.

[48] انظر كتابنا: دراسات في الفكر العربي الإسلامي، مواضع الخلاف بين الفكرين الإسلامي والغربي، ص 17-26، راجع أيضاً السير هاملتون جب: دراسات في حضارة الإسىلام، الفصل الخاص بـ.: بنية الفكر الديني في الإسلام، ص 203. ويشير بعض علماء اليهود إلى وجوه الخلاف هذه على أنها خلاف بين: الروح الإبراهيمية الحنيفية- التوحيدية بين الفكر اليوناني، والروح الهيلينية: Atticisem ذات النـزعة التعددية، انظر: آيسدور أينشتاين: المصدر السابق، ص89.

التاريخية المنشئة له إلى ركيزتين هما: الفلسفة اليونانية والحضارة الرومانية.[49] ولهذا وصف فريدريك شيلر، أحد أبرز ممثلي الوضعية المعاصرة نفسه بأنه "التلميذ البار لبروتاغوراس السوفسطائي."[50]

أما الإسلام فإنه لكونه ديناً توحيديّاً خالصاً، يقوم أساساً على القول بمحورية الخالق تعالى في الوجود Theo Centricism، فهو الخالق للموجودات وللإنسان، وهو المشرّع الذي يوالي عنايته ورعايته للبشر، وليس للإنسان مهما سما بعقله وارتقى في درجات النضج إلا أن يستمد الرشاد منه تعالى.

الخاتمة: ملاحظات نقدية ومنهجية

إننا مع تقديرنا وإكبارنا للجهد الكبير والمخلص الذي بذله المتكلمون في إرساء قواعد منهج عقلي مستنير في الإسلام، ودفاعهم المجيد عن الدين الحق، وعقائده الأساسية ومرتكزاته الخلقية، وأنهم لم يفعلوا ذلك طلباً للفتنة وإثارة الخلافات، أو سعياً وراء أمور لا طائل تحتها، كما قد يصوره أتباع المنهج السلفي الاتباعي التقليدي غالباً، بل فعلوا ما فعلوا عن رغبة صادقة، وعزم أكيد للرد على مفتريات الخصوم، "فعلماء هذا العلم وضعوا فيه ما وضعوا، وصنّفوا فيه ما صنفوا -كما أشار الشيخ محي الدين بن عربي- لا ليثبتوا في أنفسهم العلم بالله؛ وإنما وضعوه ردعاً للخصوم الذين جحدوا الإله والصفات، أو بعض الصفات، أو الرسالة، أو رسالة محمد ﷺ خاصة، أو حدوث العالم، أو الإعادة إلى الأجسام بعد الموت، أو الحشر والنشر، وما يتعلق بهذا الصنف. وكانوا (يعني الخصوم المعاندين) كافرين بالقرآن، مكذبين به، جاحدين له. فطلب علماء الكلام إقامة الدليل عليهم على الطريقة التي زعموا أنها أدتهم إلى

---

[49] أجمع مؤرخو الحضارة الغربية على:

- وحدة هذه الحضارة واطرادها، وأنها تراكم تاريخي وتفاعل ثلاثة عناصر متداخلة تشكل في مجموعها الأصل اليوناني-الروماني المشترك لهذه الحضارة، وأنها وليدة ذاتها، ونسيج ذاتي خالص، لم يتأثر في بنيته وتكوينه بغير هذين المكونين الرئيسين لها: انظر:

Gustave Edmund Von Grunebaum: Modern Islam: The Search of cultural Identity (University of California, 1962), p,249.

[50] برتراند رسل: تاريخ الفلسفة الغربية، ص 64، الأصل الإنجليزي، لندن 1970 (الطبعة الثامنة). وقد ذهب أزفلد كوليه إلى اعتبار بروتاغوراس "الأب التاريخي للوضعية المعاصرة"، المدخل إلى الفلسفة، الترجمة العربية للدكتور أبي العلا عفيفي (القاهرة: الطبعة الخامسة، 1965م).

إبطال ما ادَّعينا صحته خاصة، حتى لا يشوشوا على العامة عقائدهم".[51] ومن ثم فلن يقلل من قيمة علمهم وجهدهم وجهادهم ما ذكره الإمام الغزالي، وهو أحد مشاهيرهم، من أن مناهجهم "مبنية على مقدمات تسلموها من خصومهم، واضطرهم إلى تسليمها، إما التقليد أو إجماع الأمة، أو مجرد القبول من القرآن والأخبار، وكان أكثر خوضهم في استخراج متناقضات الخصوم، ومؤاخذتهم بلوازم مسلماتهم؛ وهذا قليل النفع في حق من لا يسلم سوى بالضروريات شيئاً أصلاً"؛[52] ذلك أن هذا الحكم قد جاء في سياق بيان وجه التفاضل بين المنهج الكلامي العقلي ومناهج الصوفية القائمة على الكشف والإلهام، الذي انتهى التطور الجوّاني الذاتي للغالي عند شطآنه، وإلا فقد قال الغزالي في بيان فضل علم الكلام وشرفه: "علم الكلام مقصوده: حفظ عقيدة أهل السنة، وحراستها عن تشويش أهل البدعة. فقد ألقى الله تعالى إلى عباده، على لسان رسوله، عقيدة هي الحق، على ما فيه صلاح دينهم ودنياهم، كما نطق بمعرفته القرآن والأخبار. ثم ألقى الشيطان في وساوس المتبدعة أموراً مخالفة، فلهجوا بها، وكادوا يشوشون عقيدة الحق على أهلها، فأنشأ الله طائفة المتكلمين، وحرّك دواعيهم لنصرة السنة بكلام مرتب يكشف تلبيسات أهل البدعة المحدثة على خلاف السنة المأثورة، فمنه نشأ علم الكلام وأهله.[53]

ولا يقدح أيضاً في جدية منهجهم ما أورده قاضي قرطبة ابن رشد عنه؛ إذ يقول: "مناهج المتكلمين غير برهانية، ولا مفضية بيقين إلى وجود الله تعالى، وليست هي بالطرق الشرعية التي نبه الله عليها ودعا الناس إلى الإيمان من قبلها".[54] فهذه شهادة خصم استسلم لمنهج أرسطو وفلسفته، ولأجله أيضاً عرف بالشارح الكبير.

---

[51] ابن عربي (الشيخ محي الدين) (توفي: 638هـ/1241م): الفتوحات المكية، تحقيق الدكتور عثمان يحيى (بيروت: دار صادر د.ت)، ص156.

[52] الغزالي: المنقذ من الضلال، ص83.

[53] الغزالي: المصدر السابق، ص79.

[54] ابن رشد (توفي: 595هـ/1119م): الكشف عن مناهج الأدلة، تحقيق الدكتور محمود قاسم (القاهرة: الطبعة الثانية، 1964م) ص140.

ومع هذا كله، فإننا نسارع إلى القول بأن المشكلات التي تعرض لها المتكلمون، وجادلوا خصومهم فيها، وردوا على آرائهم، مما لا يتوافق مع طبيعة التحديات الفكرية المعاصرة، التي تواجهها أمتنا وفكرنا الإسلامي في العصر الراهن. فقد تبدلت الظروف، وتغيرت الأحوال، وتباينت معها صورة التحديات المصيرية، وأساليب الاستجابة لها.

فنحن اليوم لسنا معنيين بالبحث في المشكلات الكلامية التقليدية المتوارثة التي لجّ المتكلمون في مناقشتها في أزمانهم، مثل: مباحث القضاء والقدر، والصفات الإلهية، وبيان خواص الفرقة الناجية وصفتها، وخصوصية المذهب الأشعري، بوصفه مذهب أهل السنة والجماعة، ومسألة الرؤية السعيدة، وهل القرآن أزلي وقديم أم حادث مخلوق؟ ومرتكب الكبائر أهو مؤمن محض؟ أم كافر خالد في النار؟ أم هو في منـزلة بين المنـزلتين؟

فتلك مشكلات كانت لها ظروفها التي ولدتها، وهي ظروف تعرض تأويل النصوص فيها لضغط الأوضاع السياسية، وهي أيضاً ظروف قد بادت وانقرضت فليس لمؤمن عاقل، عارف بتحديات حياته المعيشة، أن يجترّها ويستعيدها ويقف عندها طويلاً. بل الواجب أن نستلهم من تراث الكلاميين العقلي: منهجهم العلمي في: البحث والتمحيص والمتابعة والتدقيق، والدراسة والنقد والتحليل، وحسن الاستنباط والتمييز، وتأكيدهم ضرورة أن يتعقّل أهل الفكر والذكر، للاختلاف في الرأي والاجتهاد، ما دام الاجتهاد العقلي: سعياً إنسانياً مخلصاً ونـزيهاً للوصول إلى الحقيقة، وهو غير معصوم باتفاق الجميع، وأن نشدد على حرية الفكر، ونتسامح مع الرأي المخالف، وأن نلتزم الحَيْدة والموضوعية في البحث والمناقشة وإيراد آراء الخصوم، بلا تعصب يسدّ منافذ الحوار العقلاني المستنير، أو محاباة في الباطل تغتال الحقيقة، وتشوّه الأمور.

كذلك ينبغي الحذر الشديد عند قراءة مدونات المتكلمين، وعدم التسليم بصحة ما جاء فيها، من غير نقد باطني جريء للنصوص. إذ المعلوم الثابت تاريخياً أن أغلب المؤلفات الكلامية دوّنت في عصر اتسم بالاستقطابات المذهبية الحادة والصراعات الطائفية المقيتة، التي أنهكت قوى الأمة، وفرّقت شملها

وشتَّت جماعتها. ومع أن أكابر المتكلمين، ممن تعد مدوناتهم مراجع أولية لدراسة الأفكار والمذاهب، قد اشترطوا على أنفسهم ابتداءاً الالتزام بالحيْدة والموضوعية في تحري الحقيقة المجردة، بلا تدليس أو تلبيس، أو ليّ لآراء الخصوم قصد التشنيع بها، وبيان تهافتها، فإنهم -وهم يَحْيون أجواء فكرية وتاريخية اتسمت بالاستقطابات المذهبية الحادة، والنظرة الأحادية المغلقة على ذاتها، التي لا ترى الحق إلا فيما تعتقده من رأي ونظر- قد أخفقوا في الوفاء بمطالب المنهج النقدي الذي ألزموا أنفسهم الأخذ بشروطه. ولنضرب لذلك بعض الأمثلة التي وأد أصحابها المنهج النقدي العقلي للمتكلمين، والتي تكشف عن سقوط أصحابها ضحايا للاستقطابات الفكرية، وسياسة القهر والإكراه، وإلزام الخصوم بما لا يلزم عن مذهبهم.

يقول الإمام أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري في مقدمة مدونته المعروفة مقالات الإسلاميين واختلاف المصلّين: "أما بعد: فإنه لا بد لمن أراد معرفة الديانات، والتمييز بينها، من معرفة المذاهب والمقالات. ورأيت الناس في حكاية ما يحكون من ذكر المقالات، ويصنفون في النِّحَلِ والديانات بين مقتصد فيما يحكيه، وغالط فيما يذكره من قول مخالفيه، وبين متعمّد للكذب في الحكاية، إرادة التشنيع على من يخالفه، وبين تارك للتقصّي في روايته عن اختلاف المختلفين، وبين من يضيف إلى قول مخالفيه ما يظن أن الحجة تلزمهم به. وليس هذا سبيل الربانيين ولا سبيل الفطناء المميزين."[55]

ويقول الإمام أبو الفتح الشهرستاني، مؤرخ الأديان والفِرَق والمذاهب، في مقدمة كتابه الذي يعد مرجعاً أولياً لكل قارئ وباحث في المذاهب والأديان: "وشرطي على نفسي أن أورد مذهب كل فرقة على ما وجدته في كتبهم، من غير تعصب لهم، ولا كسر عليهم، دون أن أبين صحيحه من فاسده، وأعيّن

---

[55] الأشعري (توفي: 324هـ/936م): مقدمة مقالات الإسلاميين، تحقيق المستشرق هلموت ريتر، إسطنبول: 1929. وعن سلبيات هذه الاستقطابات الطائفية وأثرها الضار، انظر: عبد المجيد عمر النجار: "دور الإصلاح العقدي في النهضة الإسلامية" (دورية إسلامية المعرفة، العدد الأول، السنة الأولى، 1416هـ/1995م)، ص59-61.

حقه من باطله، وإن كان لا يخفى على الأفهام الذكية في مدارج الدلائل العقلية لمحات الحق ونفحات الباطل".[56]

وهذا الكتاب هو الذي قال عنه الإمام الفخر الرازي، الذي عاش -نسبياً- خارج إطار عصر الاستقطابات المذهبية الحادة: "كتاب الملل والنحل للشهرستاني كتاب حكى فيه مذاهب أله العالم بزعمه، إلا أنه غير معتمد عليه، لأنه نقل المذاهب الإسلامية من الكتاب المسمى الفَرْقُ بين الفِرَق من تأليف الأستاذ أبي منصور البغدادي. وهذا الأستاذ كان شديد التعصب على المخالفين، فلا يكاد ينقل مذهبهم على وجهه. ثم إن الشهرستاني نقل مذاهب الفرق الإسلامية من ذلك الكتاب فلهذا وقع الخلل في نقل المذاهب."[57]

وقع كل هذا في تعارض تام مع منهج القرآن الكريم القائم على أساس منع الإكراه في الدين الثابت عند المؤمنين به وحياً؛ دع عنك أن يكون إكراهاً على المذهب الذي لا يعدو أن يكون سعياً إنسانياً يتحكم فيه ما في طبيعة الإنسان من قيود وحدود، وقابلية للتغير والتحول، واقتراب أو ابتعاد عن الحق والصواب. فالاجتهادات في مجموعها فروض وتقديرات، وآراء وأفكار تدور كلها في فلك الإمكان والاحتمال. فهل لمتدين عقل دينه وفهم حقيقته أن يُلْبس رأيه ثوب الدين الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

إن القرآن الكريم في تأكيده وتقريره مبدأ منع الإكراه في الدين قد أثبت للبشرية قاعدة دينية خلقية خالدة مفادها: أن الإيمان قضية باطنية (داخلية) خالصة، وأنه لا بد أن يكون عن اختيار مبني على الإدراك واليقين، وأن الإكراه عليه لا يسوق إلا إلى سوأتين كلتاهما عار وشنار لا تليق بالإنسان الذي كرّمه الله تعالى، وجعله أهلاً للخلافة على الأرض، وحمّله أمانة السماء؛ وهاتان السوأتان هما: إما التظاهر الكذوب بالإيمان نفاقاً، خوف المحنة، مما يسوق لزاماً إلى ألوان من "التقية والخداع"، وذلك بإظهار الإنسان خلاف ما يعتقده داخلياً قناعة ويقيناً، مخافة الردع والقهر، أو تحيّن الفرصة المواتية للارتداد الكامل عما أجبر عليه إكراهاً وجبراً. ومن هنا فإنّ أشدّ تحذير وجهه

---

[56] الشهرستاني: مقدمة الملل والنحل.

[57] الشيخ جمال الدين القاسمي: تاريخ الجهمية والمعتزلة، ص 23-24.

القرآن الكريم للنبي الصادق الأمين، المعصوم باتفاق، الرؤوف الرحيم بالمؤمنين ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (التوبة:128)، هو التحذير من الميل إلى الهيمنة والسيطرة والتسلط؛ فقال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّر . لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾ (الغاشية:21-22)، وقال تعالى: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (يونس:99)، وقال تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ (آل عمران: 128).

إن الإسلام دين يسير؛ وقوته في سهولته، فتقييده بالتكلّفات التي اصطنعها علماء الكلام، خروج به عن طبيعته التي تخاطب الفطرة السليمة للإنسان.

إن الإسلام دين واضح، وعظمته في وضوحه، فلنخلّصه من كل غموض يراد إلحاقه به، باسم الانتصار الجاهل للدين أسوأ من العدو العاقل له. فلقد صاغ المتكلمون أصول العقيدة صياغة سلبية، وفي عبارات تتسم بالتجريد الخالص ولا تنبئ عن جوهرها، ولا تخبر عن حقيقتها ومقاصدها، بقدر ما كانت هذه الصياغة التجريدية السلبية رفضاً لآراء ومعتقدات متعارضة مع حقائق الإسلام، أثارتها ظروف الصراع الفكري والعقدي مع أهل الأديان السابقة على الإسلام. وهكذا لخّص الإمام النسفي جملة العقائد الإسلامية في أقل من صفحتين، وأوجزها صاحب المواقف في صفحة يتيمة مفردة جعلها في آخر كتابه الموسوعي. ولعل هذا التجريد الذي أفقد الدين صفاء الإيمان ودفق اليقين وحرارة العاطفة والوجدان هو ما حمل الغزالي على تسمية كتابه بـ: إحياء علوم الدين رفضاً للتجريدات العقلية الجامدة، والغلوّ في الوقوف عند الرسوم والأشكال الخارجية للدين.

إن القرآن الكريم قد جعل التعقل والتدبّر والتفكر والتبصّر منهجاً لفهم الوجود، وردّ التقليد والمتابعة، بلا روية وتبصر، وجعله عدواً له، على لسان إبراهيم الحنيف عليه السلام: ﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ . قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ . أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ . قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ . قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ . أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ . فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ (الشعراء:71-77).

فلنتمسك بمنهج القرآن الكريم الذي قال فيه الحق تعالى: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ (العنكبوت: 43)، المنهج القويم الذي "جمع بين المعقول والمنقول"، وأبطل دعاوى المرجفين (من دعاة الحداثة والتنوير والمعاصرة) القائلين أن بين "المعقول والمنقول" تقابلاً وتعارضاً وتناقضاً، وأنه لا "حداثة" ترتجى من غير خضوع الدين والوحي للسلطة البشرية وأحكام العقل الإنساني واجتهاداته. فهم في سعيهم هذا ما استفتوا القرآن الكريم، و لم يدركوا دقائق المنهج القرآني، وإنما استسلموا لمنطق الفكر الغربي الذي عاش الصراع بين هذه المتقابلات المتناقضات، منذ ولادته المبكرة في أحضان اليونان في القرن السادس قبل الميلاد.[58]

إن الإسلام دين التوحيد والوحدة، فلنتجاوز غواية كتاب الفرق والمقالات وهوايتهم بالفرقة والافتراق، فقد قرن الحق تعالى ذلك بالشرك والمشركين، فقال عزّ من قائل ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ . مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ (الروم:31-32).

[58] انظر: عرفان عبد الحميد فتاح: دراسات في الفكر العربي الإسلامي، ص 23-24، ومحمد عمارة: "الموقع الفكري لابن رشد بين الغرب والإسلام"، دورية إسلامية المعرفة (السنة الأولى، العدد الأول، ربيع 1416هـ/1995م)، ص 85 وما بعدها.